تفسير إبن كثير

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ۚ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ

وقوله : (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم) قال قتادة : نزلت في عبد الله بن أبي ، وذلك أنه اقتتل رجلان : جهني وأنصاري ، فعلا الجهني على الأنصاري ، فقال عبد الله للأنصار : ألا تنصروا أخاكم ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : " سمن كلبك يأكلك " ، وقال : (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) [المنافقون : 8] فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأرسل إليه فسأله ، فجعل يحلف بالله ما قاله ، فأنزل الله فيه هذه الآية .وروى إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة ، عن عمه موسى بن عقبة قال : فحدثنا عبد الله بن الفضل ، أنه سمع أنس بن مالك - رضي الله عنه - يقول : حزنت على من أصيب بالحرة من قومي ، فكتب إلي زيد بن أرقم - وبلغه شدة حزني - يذكر أنه سمع رسول الله - صلى

االله عليه وسلم - يقول : اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار - وشك ابن الفضل في أبناء أبناء الأنصار - قال ابن الفضل : فسأل أنسا بعض من كان عنده عن زيد بن أرقم ، فقال : هو الذي يقول له رسول االله - صلى االله عليه وسلم - : أوفى االله له بأذنه . وذاك حين سمع رجلا من المنافقين يقول - ورسول االله - صلى االله عليه وسلم - يخطب - : لئن كان هذا صادقا فنحن شر من الحمير ، فقال زيد بن أرقم : فهو واالله صادق ، ولأنت شر من الحمار . ثم رفع ذلك إلى رسول االله ، فجحده القائل ، فأنزل االله هذه الآية تصديقا لزيد - يعني قوله : (يحلفون باالله ما قالوا) الآية .رواه البخاري في صحيحه ، عن إسماعيل بن أبي أويس ، عن إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة . إلى قوله : هذا الذي أوفى االله له بأذنه ولعل ما بعده من قول موسى بن عقبة ، وقد رواه محمد بن فليح ، عن موسى بن عقبة بإسناده ثم قال : قال ابن شهاب . فذكر ما بعده عن موسى ، عن ابن شهاب .والمشهور في هذه القصة أنها كانت في غزوة بني المصطلق ، فلعل الراوي وهم في ذكر الآية ، وأراد أن يذكر غيرها فذكرها ، واالله أعلم . [حاشية]قال " الأموي " في مغازيه : حدثنا محمد بن إسحاق ، عن الزهري ، عن عبد الرحمن بن عبد االله بن كعب بن مالك

، عن جده قال : لما قدم رسول االله - صلى االله عليه وسلم - أخذني قومي فقالوا : إنك امرؤ شاعر ، فإن شئت أن تعتذر إلى رسول االله - صلى االله عليه وسلم - ببعض العلة ، ثم يكون ذنبا تستغفر االله منه . وذكر الحديث بطوله إلى أن قال : وكان ممن تخلف من المنافقين ، ونزل فيه القرآن منهم ممن كان مع النبي - صلى االله عليه وسلم - الجلاس بن سويد بن الصامت ، وكان على أم عمير بن سعد ، وكان عمير في حجره ، فلما نزل القرآن وذكرهم االله بما ذكر مما أنزل في المنافقين ، قال الجلاس : واالله لئن كان هذا الرجل صادقا فيما يقول لنحن شر من الحمير [قال] فسمعها عمير بن سعد فقال : واالله - يا جلاس - إنك لأحب الناس إلي ، وأحسنهم عندي بلاء ، وأعزهم علي أن يصله شيء يكرهه ، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك ولئن كتمتها لتهلكني ، ولإحداهما أهون علي من الأخرى . فمشى إلى رسول االله - صلى االله عليه وسلم - فذكر له ما قال الجلاس . فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى يأتي النبي - صلى االله عليه وسلم - فحلف باالله ما قال ما قال عمير بن سعد ، ولقد كذب علي . فأنزل االله - عز وجل - فيه : (يحلفون باالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم) إلى آخر الآية . فوقفه رسول االله -

صلى االله عليه وسلم - عليها . فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته ، ونزع فأحسن النزوع هكذا جاء هذا مدرجا في الحديث متصلا به ، وكأنه - واالله أعلم - من كلام ابن إسحاق نفسه ، لا من كلام كعب بن مالك .وقال عروة بن الزبير : نزلت هذه الآية في الجلاس بن سويد بن الصامت ، أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء ، فقال الجلاس : إن كان ما جاء به محمد حقا فنحن أشر من حمرنا هذه التي نحن عليها . فقال مصعب : أما واالله - يا عدو االله - لأخبرن رسول االله - صلى االله عليه وسلم - بما قلت : فأتيت النبي - صلى االله عليه وسلم - وخفت أن ينزل في القرآن أو تصيبني قارعة ، أو أن أخلط بخطيئته ، فقلت : يا رسول االله ، أقبلت أنا والجلاس من قباء ، فقال كذا وكذا ، ولولا مخافة أن أخلط بخطيئة أو تصيبني قارعة ما أخبرتك . قال : فدعا الجلاس فقال : يا جلاس ، أقلت الذي قاله مصعب ؟ فحلف ، فأنزل االله : (يحلفون باالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم) الآية .وقال محمد بن إسحاق : كان الذي قال تلك المقالة - فيما بلغني - الجلاس بن سويد بن الصامت ، فرفعها عليه رجل كان في حجره ، يقال له : عمير بن سعيد ، فأنكرها ، فحلف باالله ما قالها : فلما نزل فيه القرآن تاب ونزع ، وحسنت

توبته ، فيما بلغني .وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثني أيوب بن إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا عبد االله بن رجاء ، حدثنا إسرائيل ، عن سماك ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان رسول االله - صلى االله عليه وسلم - جالسا في ظل شجرة فقال : إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني الشيطان ، فإذا جاء فلا تكلموه . فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق ، فدعاه رسول االله - صلى االله عليه وسلم - فقال : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه ، فحلفوا باالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم ، فأنزل االله - عز وجل - : (يحلفون باالله ما قالوا) الآية .وذلك بين فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب " دلائل النبوة " من حديث محمد بن إسحاق ، عن الأعمش عن عمرو بن مرة ، عن [أبي] البختري ، عن حذيفة بن اليمان - رضي االله عنه - قال : كنت آخذا بخطام ناقة رسول االله - صلى االله عليه وسلم - أقود به ، وعمار يسوق الناقة - أو أنا : أسوقه ، وعمار يقوده - حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكبا قد اعترضوه فيها ، قال : فأنبهت رسول االله - صلى االله عليه وسلم - [بهم] فصرخ بهم فولوا مدبرين ، فقال لنا رسول االله - صلى االله عليه وسلم - : هل عرفتم القوم ؟ قلنا : لا يا رسول االله ، قد كانوا

متلثمين ، ولكنا قد عرفنا الركاب . قال : هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة ، وهل تدرون ما أرادوا ؟ قلنا : لا . قال : أرادوا أن يزحموا رسول االله في العقبة ، فيلقوه منها . قلنا : يا رسول االله ، أو لا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ قال : لا ، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمدا قاتل بقوم حتى [إذا] أظهره االله بهم أقبل عليهم يقتلهم ، ثم قال : اللهم ارمهم بالدبيلة . قلنا : يا رسول االله ، وما الدبيلة ؟ قال : شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك .وقال الإمام أحمد - رحمه االله - : حدثنا يزيد ، أخبرنا الوليد بن عبد االله بن جميع ، عن أبي الطفيل قال : لما أقبل رسول االله - صلى االله عليه وسلم - من غزوة تبوك ، أمر مناديا فنادى : إن رسول االله - صلى االله عليه وسلم - أخذ العقبة فلا يأخذها أحد . فبينما رسول االله - صلى االله عليه وسلم - يقوده حذيفة ويسوقه عمار ، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل ، فغشوا عمارا وهو يسوق برسول االله ، وأقبل عمار - رضي االله عنه - يضرب وجوه الرواحل ، فقال رسول االله - صلى االله عليه وسلم - لحذيفة : قد ، قد . حتى هبط رسول االله - صلى االله عليه وسلم - [فلما هبط] نزل ورجع عمار ، فقال : يا عمار ، هل عرفت القوم ؟ فقال : قد عرفت

عامة الرواحل ، والقوم متلثمون . قال : هل تدري ما أرادوا ؟ قال : االله ورسوله أعلم . قال : أرادوا أن ينفروا برسول االله - صلى االله عليه وسلم - فيطرحوه . قال : فسار عمار رجلا من أصحاب النبي - صلى االله عليه وسلم - فقال : نشدتك باالله كم تعلم كان أصحاب العقبة ؟ قال : أربعة عشر . فقال : إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر . قال : فعذر رسول االله - صلى االله عليه وسلم - منهم ثلاثة قالوا : واالله ما سمعنا منادي رسول االله ، وما علمنا ما أراد القوم . فقال عمار : أشهد أن الاثني عشر الباقين حرب الله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .وهكذا روى ابن لهيعة ، عن أبي الأسود ، عن عروة بن الزبير نحو هذا ، وأن رسول االله - صلى االله عليه وسلم - أمر أن يمشي الناس في بطن الوادي ، وصعد هو وحذيفة وعمار العقبة ، فتبعهم هؤلاء النفر الأرذلون ، وهم متلثمون ، فأرادوا سلوك العقبة ، فأطلع االله على مرادهم رسول االله - صلى االله عليه وسلم - فأمر حذيفة فرجع إليهم ، فضرب وجوه رواحلهم ، ففزعوا ورجعوا مقبوحين ، وأعلم رسول االله - صلى االله عليه وسلم - حذيفة وعمارا بأسمائهم ، وما كانوا هموا به من الفتك به ، صلوات االله وسلامه عليه ، وأمرهما أن يكتما عليهم .وكذلك روى يونس بن

بكير ، عن ابن إسحاق ، إلا أنه سمى جماعة منهم ، فاالله أعلم .وكذا قد حكي في معجم الطبراني ، قاله البيهقي . ويشهد لهذه القصة بالصحة ، ما رواه مسلم :حدثنا زهير بن حرب ، حدثنا أبو أحمد الكوفي ، حدثنا الوليد بن جميع ، حدثنا أبو الطفيل قال : كان [بين] رجل من أهل العقبة [وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس ، فقال : أنشدك باالله ، كم كان أصحاب العقبة] قال : فقال له القوم : أخبره إذ سألك . قال : كنا نخبر أنهم أربعة عشر ، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر ، وأشهد باالله أن اثني عشر منهم حرب الله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وعذر ثلاثة قالوا : ما سمعنا منادي رسول االله - صلى االله عليه وسلم - ولا علمنا بما أراد القوم . وقد كان في حرة فمشى ، فقال : إن الماء قليل ، فلا يسبقني إليه أحد ، فوجد قوما قد سبقوه ، فلعنهم يومئذ .وما رواه مسلم أيضا ، من حديث قتادة ، عن أبي نضرة ، عن قيس بن عباد ، عن عمار بن ياسر قال : أخبرني حذيفة عن النبي - صلى االله عليه وسلم - أنه قال : في أصحابي اثنا عشر منافقا ، لا يدخلون الجنة ، ولا يجدون ريحها حتى يلج [الجمل] في سم الخياط : ثمانية تكفيكهم الدبيلة : سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من صدورهم .ولهذا

كان حذيفة يقال له : " صاحب السر ، الذي لا يعلمه غيره " أي : من تعيين جماعة من المنافقين ، وهم هؤلاء ، قد أطلعه عليهم رسول االله - صلى االله عليه وسلم - دون غيره ، واالله أعلم . وقد ترجم الطبراني في مسند حذيفة تسمية أصحاب العقبة ، ثم روى عن علي بن عبد العزيز ، عن الزبير بن بكار أنه قال : هم معتب بن قشير ، ووديعة بن ثابت ، وجد بن عبد االله بن نبتل بن الحارث من بني عمرو بن عوف ، والحارث بن يزيد الطائي ، وأوس بن قيظي ، والحارث بن سويد ، وسعد بن زرارة وقيس بن فهد ، وسويد وداعس من بني الحبلي ، وقيس بن عمرو بن سهل ، وزيد بن اللصيت ، وسلالة بن الحمام ، وهما من بني قينقاع ، أظهرا الإسلام .وقوله : (وما نقموا إلا أن أغناهم االله ورسوله من فضله) أي : وما للرسول عندهم ذنب إلا أن االله أغناهم ببركته ويمن سفارته ، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم االله لما جاء به ، كما قال ، عليه السلام للأنصار : ألم أجدكم ضلالا فهداكم االله بي ؟ وكنتم متفرقين فألفكم االله بي ؟ وعالة فأغناكم االله بي ؟ كلما قال شيئا قالوا : االله ورسوله أمن .وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كما قال تعالى : (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا باالله العزيز الحميد) [البروج : 8] وكما قال - عليه السلام -

ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيرا فأغناه االله .ثم دعاهم االله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال : (فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم االله عذابا أليما في الدنيا والآخرة) أي : وإن يستمروا على طريقهم (يعذبهم االله عذابا أليما في الدنيا) أي : بالقتل والهم والغم ، (والآخرة) أي : بالعذاب والنكال والهوان والصغار ، (وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير) أي : وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم ، ولا يحصل لهم خيرا ، ولا يدفع عنهم شرا .